القسم الثانى

ليس الذكر كالأنثى
فى السمات النفسية والعقلية

- توطئة
- سمات الأنثى النفسية والعقلية
- سمات الذكر النفسية والعقلية

توطئة

فى هذا القسم سنتناول بالحديث السمات النفسية والعقلية للجنسين ، متبعين منهج التعميم دون التخصيص ، والإيجاز دون التفصيل ؛ حتى لا نفقد موضوعنا الرئيسى وسط الإسهابات والتفريعات ؛ وحتى لا تختلط علينا الأمور الصغيرة بالكبيرة . فضلاً عن أنه من المستحيل تماماً أن نفحص كل الصفات النفسية والعقلية لنعرف ما إذا كانت من صفات الذكور أم الإناث .

وإذا كنا سننسب ، فى هذا القسم ، لأحد الجنسين صفة ما ، فهذا لا يعنى أننا نجرّد الجنس الآخر منها . إنما نبغى فقط تقرير ما يوجد عند أحدهما أكثر مما يوجد عند الآخر .

ذلك أن الموازنة – التى نحرص عليها فى هذا الكتاب – تجرى على الأعم الأغلب فى جميع الأحوال ، ولا شأن لها بالاستثناء الذى يأتى من حين إلى حين ، والذى لابد منه فى كل تعميم .

سمات الأنثى النفسية والعقلية

تشير البحوث العلمية ، بل والملاحظات الفردية ، إلى أن القدرة العاطفية هى السمة الأساسية التى تتسم بها نفس حواء . ذلك أن اتجاهات حواء الفكرية والنفسية ، وسلوكياتها وردود أفعالها ، وميولها ورغباتها ، إنما تنطلق بوجه عام من المنطلق الوجدانى والعاطفى .

ومن ثم لن نتمكن من فهم أبعاد هذا العالم الأنثوى الجذاب ، إذا لم ننظر لهذه السمة الجوهرية النظرة التى تتناسب معها تناسباً طردياً .

وإذا كانت المشاعر العاطفية فى المرأة العادية تمثل الحالة الطبيعية بالنسبة لها ، والذى يندر أن تهجرها ، وإذا هجرتها وجدت فى نفسها مقاومة باطنية تنبع

من أعماقها . إذا كان ذلك كذلك ؛ فإن المشاعر العاطفية لدى الرجل العادى لا تمثل سوى عدول مؤقت عن حالته الطبيعية .

وتتجلى عاطفة حواء ، بصفة خاصة ، عند التجارب المؤثرة ، وفى شغفها الدائم والمستمر بأنواع الممارسات التى تبعث على الإشفاق أو الخوف أو الاشمئزاز . وفى الولوع بنشوة الإثارة والمخاطرة ، حتى لو كان فى هذا ما يبعث لديها شعوراً فيه مزيج من الخوف والرجاء .

فحواء تشعر دائما بحاجتها الملحة للتعبير عن عواطفها الجياشة فى كافة الاتجاهات ، وعلى كل المستويات . وهذه السمة الجوهرية التى تتسم بها ، تنشأ عنها سمات أخرى ذات أهمية بالغة ، بالنسبة لحواء ذاتها ، وبالنسبة للمجال الذى تتواجد فيه .

القدرة على التأثر بالإيحاء :

من السمات التى تتسم بها نفس حواء ، والتى تعد ذات صلة وثيقة بالعاطفة – القدرة على التأثر بالإيحاء . وهذه السمة وإن كان يتسم بها الرجال أيضاً ، إلا أن حواء تتميز بكونها تستقبل المؤثرات الإيحائية وترحب بها أكثر من الرجل .

وأعتقد أن المرء ليس بحاجة إلى تفسير مسهب حتى يظهر أن ترحيب حواء بهذه المؤثرات – يعد من الأمور الهامة بالنسبة لأحاسيسها وعواطفها ، وبالنسبة لتفكيرها وتصرفها ، ولانفعالاتها المختلفة ، تجاه البيئة المحيطة بها .

سرعة الاستجابة للدوافع :

ومن سمات حواء أيضاً « سرعة الاستجابة للدوافع » . والدافع هنا عبارة عن مؤثر قوى يدفع الكائن الحى إلى القيام بسلوك يرمى إلى تحقيق غرض محدد . و« سرعة الاستجابة للدوافع » تتمثل فى سرعة إدراكها ، والانفعال بها ، والاستجابة لها ؛ ومن ثم اتخاذ السلوك الذى يؤدى إلى إشباعها .

ونستطيع أن نرى مثالاً واضحاً يكشف الغطاء عن « سرعة الاستجابة النسوية » فى الأسلوب الذى تستسلم به كثير من النساء لشهوة مفاجئة ، تدفعهن إلى شراء شيء ، يشاهدنه فى نوافذ المحال التجارية ، دون أن يحتجن إليه ، ودون أن يكون لديهن فائض من المال ، بل قد يكون بيتها فى حاجة ملحة للمبلغ الذى دفع فى هذا الشيء .

سرعة التأثر العاطفى :

وهناك سمة قريبة الشبه بسرعة الاستجابة للدوافع ، وهى سرعة التأثر العاطفى ، والخضوع الواضح للمشاعر العاطفية . وحين يترك زمام الأمور لسرعة الاستجابة للدوافع ولسرعة التأثر العاطفى ، حينئذ تكون السيطرة والغلبة للمشاعر العاطفية ؛ وبالتالى نستطيع أن نلاحظ صفات نسوية متعددة ، مثل : تقلب المزاج ، تغير الطبع ، الرغبة فى التنويع .

وإذا كان تقلب المزاج من الأمور الشائعة لدى حواء ، فينبغى أن نشير إلى أن هذا الأمر ليس محصلة لطبيعتها العاطفية وحدها ، بل يرجع أيضاً إلى التغيرات المتلاحقة التى تحدث فى وظائف جسمها .

الرغبة فى التنويع :

أما عن الرغبة فى « التنويع » فهى عبارة عن رغبة دائمة متجددة فى رؤية وسماع وتجربة أشياء جديدة مختلفة . وهذه الصفة ترجع فى أساسها إلى الطبيعة العاطفية التى تتلهف دائما إلى مؤثرات جديدة ، خاصة تلك التى تتسم بكونها قوية وعنيفة .

ومعظم بنات حواء يقمن بحصر هذه الرغبة داخل دائرة معقولة بدافع من المنطق والإحساس بالواجب . ولكن نظراً لطبيعة المتغيرات الحضارية التى يتسم بها طابع هذا العصر ، فإن النساء اللاتى يكرهن فكرة الواجب يتزايدن باطراد ، لدرجة أن بعضهن لا يستطعن إخفاء استيائهن واشمئزازهن عندما تثار مثل هذه الفكرة أمامهن .

الحساسية والمرونة :

ننتقل الآن إلى سمة أخرى من سمات حواء ، وهى الحساسية والمرونة . وهنا نذكر القارىء الكريم بما كتبناه عن حساسية المرأة البدنية وامتيازها أو انفرادها بذلك عن الرجل . وأرى من الأفضل أن يعاود الأخ القارىء قراءة ذلك المبحث ، ثم يتساءل معنا بعد قراءته :

هل لتلك الأمور ما يماثلها ويوازيها عقلياً ونفسياً فى الذات الأنثوية ؟

فى الواقع إن الإجابة على هذا السؤال ، قد تكون بديهية إلى حد كبير ؛ نظراً للترابط القوى الملموس بين التكوين الجسمى والوظيفى وبين التكوين النفسى والعقلى ، أو بأسلوب آخر : هناك حلقة دائمة الاتصال بين الجسم والنفس فى داخل الكيان الإنسانى ؛ فيؤثر الجسم فى النفس ، وتؤثر النفس فى الجسم دواليك .

وطالما الأمر كذلك ؛ فلابد وأن يكون للحساسية والمرونة الجسميتين ما يماثلهما ويوازيهما فى نفس وعقل المرأة . فالمرأة إذا كانت تنتابها حالات من التيقظ والنشاط ، والإحساس بالقوة والحيوية ، والرغبة فى العمل ؛ فهناك فترات تحدث فيها حالات أخرى مغايرة ، يهبط فيها العقل والشعور إلى مستويات دون المستوى الطبيعى .

وتحصل الحالات الأولى فى أثناء ارتفاع الموجة وعند بلوغها الذروة ، وتحصل الحالات الأخرى المغايرة حين تبدأ الموجة فى الهبوط قبيل الحيض مباشرة ، وفى أثناء النزف نفسه ، وحين تصل الموجة إلى أدنى درجة .

فتظهر على كثير من بنات حواء مظاهر النشاط والصحة ، والمرح والابتهاج ؛ ولكن تنتابهن مشاعر الضيق والانقباض فى أثناء فترة الهبوط . وأمور مثل : العصبية ، وعدم الانسجام ، وسرعة التهيج ، والميل إلى المشاجرة لأتفه سبب ، والحساسية المرهفة ، وتغيير الهدف فجأة ، وكثرة تقلب المزاج ، والتشبث بفكرة مفاجئة غير معقولة .. مثل هذه الأمور تعتبر كلها من مظاهر التغيرات

التى تمر بها كثير من النساء ، مثل تغيرات الحيض ، مع أن هؤلاء النسوة يكن طبيعيات فى غير هذه الفترات .

ويرى باحثون متعددون أن القدرة العاطفية التى تمتاز بها حواء ترجع أساساً إلى صفة « الحساسية والمرونة » ، وما أكثر الأدلة التى يستندون عليها فى إثبات أن القدرة العاطفية ، والحساسية ، ومرونة التوازن العقلى ، متصلة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً جداً . ومن ثم يصلون إلى أن كل السمات السابقة تتداخل بعضها فى بعض مثل تداخل دوائر المياه ، أو تتشابك مثل تشابك أغصان الشجر الكثيف المتدانى .

وإبان فترة المراهقة تدرك المرأة حساسيتها ومرونتها اللتين تميزان جسمها وعقلها . وإذا كان هذا الشعور يبدو غامضاً أول الأمر ، فإنه يتضح بالتدريج ، ويغدو ملموساً أكثر وأكثر ، وإن لم تعترف المرأة بذلك . ويسبب هذا الإدراك لها شعوراً بالنقص أو بالضعف . وإذا لم يكن هذا الشعور لديها نتيجة تجارب الطفولة ، فيبدو أنه يتصل بحيضها الأول ، وخاصة الفترة اللاحقة له . وتلك الفترة المتجددة المتكررة تسبب لها غالباً شعوراً بالضيق ونقص الكفاءة ؛ فهى تعتبر حساسيتها ومرونتها نقصاً أو ضعفاً . وبطبيعة الحال يتفاوت هذا الشعور من امرأة إلى أخرى بشكل ملحوظ . وقد تحاول المرأة مقاومة مثل هذا الشعور ، أو القضاء عليه ، بما لها من مميزات أنثوية تجعلها محور اهتمام الرجل وعنايته .

التماس حواء لعون الرجل وحمايته :

وشعور المرأة بأنها رقيقة ، مرنة ، شديدة الحساسية ، يؤثر فيها تأثيراً كبيراً ، لدرجة أنه يوقظ فيها الرغبة فى التماس عون الرجل وحمايته .

ويمكن إجمال عوامل التماس المرأة لعون الرجل وحمايته ، بالإضافة إلى العامل سالف الذكر ، فى أربعة عوامل .. هى :

العامل الأول : قدرة الرجل العاطفية أقل من نظيرتها عند المرأة ؛ ومن ثم فهو أقدر منها على الصمود ومقاومة المشاعر المؤقتة .

العامل الثانى : قدرة الرجل على التفكير والسلوك بعيدة عن دائرة تأثير كل من المرونة والحساسية الجسمية .

العامل الثالث : وظيفة العقل الأساسية فى الرجل لا تتوقف ، على عكس المرأة . بالإضافة إلى أن وظيفة العقل الثانوية التى تسيطر على المرأة تجعلها تشتهى الاتفاق والمصالحة والمهادنة ، وذلك وفقاً لفطرتها .

العامل الرابع : طبيعة الأشياء جعلت الرجل هو الذى يحمى المرأة طوال فترات التاريخ البشرى ، وهو الذى يهتم بها ، ويقوم على أمرها هى وأبنائها .

فالمرأة تعتمد على الرجل فى صيانتها ، وحمايتها ، وإعاشتها ؛ نتيجة سماتها الحسية المميزة . وهى تلتمس منه هذه الحماية وتتطلبها ، وهى تدرى أو لا تدرى . وهى ترغب فى الاعتماد عليه ؛ لأن شعورها الملهم الراقى ينبئها بأن أسباب هذا الاعتماد إنما تقوم على أسس طبيعية فطرية .

الرغبة فى الخضوع والاستسلام :

ورغبة المرأة فى الاعتماد على الرجل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالرغبة فى الخضوع والاستسلام . ولعل أقرب دليل على ذلك هو أن الملامسة الحسية تتضمن عدداً من المؤثرات القوية التى تستدعى خضوع المرأة للرجل و استسلامها له ، لدرجة أن رغبة المرأة فى الملامسة ترتبط لديها بالميل إلى الخضوع والاستسلام .

ورغبة المرأة فى الاستسلام والخضوع تنشأ من رغبتها فى القوة والسيطرة ، ولكنها تشعر بهذه الرغبة مقلوبة سلبية . وإذا كانت الرغبة فى « الخضوع والاستسلام » تناقض الرغبة فى « القوة والسيطرة » ؛ إلا أنهما تتمشيان معاً فى إحساس المرأة ، فتؤلف بينهما اضطراراً من حيث تريد أو لا تريد . لأن التناقض سمة لابد منها فى تكوين الذات الأنثوية فى ألزم لوازمها .

فهى تشتهى الخضوع والاستسلام بكل روحها وكيانها ، ولكنها تتطلع إلى القوة والسيطرة . ولا تلبث إن عاجلاً أو آجلاً (وعادة أول الأمر) فى الصراع لكسب القوة والسيطرة . ولكنها إذا انتصرت فقدت الشىء الذى تحتاج إليه أشد

الاحتياج ، وهو حماية الرجل وكفالته ورعايته . وفوق ذلك تكون قد فقدت أخصب مصدر لتحقيق السعادة لديها . ذلك أن أسعد ساعات المرأة عامة هى الساعة التى تظفر فيها بالرجل الذى تستكين إلى بأسه وتشعر بغلبته . ولا سعادة لها مطلقاً مع الرجل الضعيف لأنه- أولاً وقبل كل شيء- رجل غير موفور الرجولة ؛ ومن ثم لن يستطيع أن يحقق لها غرض الأنوثة الأقوى ، ولا غرض للأنوثة أقوى من الظفر بالأقوياء من الرجال .

وإذا كان من المعلوم لدينا جميعاً أن هناك ألعاباً يخسر فيها الفائز ، فالأمر هنا لا يختلف عن هذا كثيراً ؛ إذ أن المرأة التى تكسب فى مبارة الحصول على القوة والغلبة ، وتفوز بها دون زوجها ، هى فى الواقع خاسرة . ولن يستطيع الزوجان أن يربحا معاً إلا إذا تمكن الرجل وحده من السيطرة . أما إذا كسبت المرأة السيطرة ، فكلاهما سيغدو خسران . ولكن خسارة المرأة ستكون أكبر ؛ لأنها فقدت كل شيء بانتصارها ! ولن تجد شيئاً ما يعوضها عن تلك الخسارة التى أدى إليها ذلك النصر المشئوم ! وستغدو مثل هذه المرأة شاعرةً بكل المشاعر البائسة نتيجة فقدانها للملاذ والسند والدعامة التى كانت تنشدها فى شريكها ، وسينبعث فى نيتها سوء الظن بذلك الرجل الذى سمح لنفسه أن ينهزم أمامها ، وسوف تحمل فى نفسها احتقاراً شديداً له !

ذلك أن المرأة تستاء أشد الاستياء من الرجل الضعيف عديم الفاعلية ، بقدر ما تعجب أشد الإعجاب بالرجل صاحب التأثير ، والقادر على اتخاذ القرار المناسب ، وعلى إبداء معالم القوة على تباين أشكالها وتنوعها من مجتمع إلى آخر ، ومن حضارة إلى أخرى .

سمة « التقبلية » :

ومن السمات البارزة لدى المرأة أنها ذات طبيعة « تقبلية » ؛ فإذا كانت من الناحية الجنسية تمثل القطب السالب الذى يستقبل الحيوان المنوى ، فهى من الناحية الوجدانية تميل إلى أن تكون الموضوع المعشوق الذى يحظى بالإعجاب .

وهذا ما يفسر لنا ميلها الفطرى إلى التزين ، وإلى أن تبدو فى أجمل صورة وأبهى منظر ؛ حتى تصير موضوعاً قابلاً لأن يُعشَق ويُحَب .

وسمة « التقبلية » التى تتسم بها المرأة موجودة أيضاً فى تكوينها العقلى ؛ حيث إنها تميل إلى تقبل المعرفة ، وتأبى طبيعتها عليها أن تسلك طريقاً جديداً إيجابياً بالمعنى الكامل . والدليل على ذلك أن المستقرىء لتاريخ الفلسفة والعلم لا يجد نساء فيلسوفات أو عالمات ، وإذا وُجِدَت من يمكن أن تلقب بالفيلسوفة أو العالمة فهذا من قبيل الاستثناء الذى لابد منه . ومن المقرر أن الموازنة تجرى على الأغلب الأعم ، وعلى القاعدة التى تشيع وتعمم فى جميع الأحوال ، ولا عبرة بالاستثناء الذى يأتى من حين إلى حين إلا من حيث دلالته على القاعدة التى يخالفها . وإذا كان البعض سيسارع الآن بذكر اسم « مارى كورى » لكى يدلل على عكس دعوانا ؛ فإن مثل هذا الاستدلال لهو أكبر دليل على ما نذهب إليه ؛ إذ أن عمل هذه السيدة لم يكن من قبيل الإبداع والاختراع ، بل كان من قبيل الكشف والتنقيب . ومهما يكن من أمر ؛ فعلينا أن نتذكر أننا هنا لا نحاول المفاضلة بين الرجل والمرأة بأى وجه من الوجوه ، إنما غرضنا الأعلى هو الكشف عن سمة أنثوية أصيلة هى « سمة التقبلية » فى الناحية العقلية . والقاعدة فى هذا هى أن المرأة تتلقى المعلومات ، ويمكن أن تعقد المقارنات ، وتمتاز بذاكرة قوية ، والذاكرة سمة من سمات « التقبل » . ولعل المرء لا يخطىء إذا قرر أن النساء بصفة عامة أقوى ذاكرة من الرجال ، وأن الرجال أقدر منهن على التفلسف والاختراع والإبداع .

سمة الحدس والإلهام :

وإذا كان الرجال يستخدمون المنطق العقلى كأداة للمعرفة ، فإن النساء بطبيعتهن يستخدمن الحدس والإلهام . والحدس عبارة عن معرفة لدنية فطرية يستطيع الإنسان عن طريقها أن يدرك الحقائق بغير الطريق الحسى وبغير إعمال الفكر أو التذرع بالشواهد والدلائل والمقدمات المنطقية . إنه عبارة عن معرفة يستشف بها الإنسان الحقيقة مباشرة دون أى استخدام للبرهنة والاستدلال ، وهو بهذا أشبه بالرؤية المباشرة والإلهام .

وقد أكد علم النفس أنه من السمات الإنسانية الأكيدة التى تساهم فى أعمال المرأة أكثر مما تساهم فى أعمال الرجل . فالمرأة فى أحلامها التى تراها فى منامها تكون أصدق مما يراه الرجل . والمرأة فى يقظتها تكون فى حالة من الشفافية تسمح لها بالمعرفة المباشرة التى لا تعتمد على الحس أو التجارب أو الاستدلالات ؛ مما يجعلها تتمتع بسمة كم هى عظيمة .

ولا شك أن انخراط المرأة فى شواغل الحياة وكدحها ، مما سيؤدى إلى طمس تلك الطبيعة الحدسية الجميلة ، وسيحرمها من سمة نفسية طالما استعانت بها عبر العصور فى تسيير شئون حياتها وحياة أبنائها وزوجها .

سمة الاحتواء والرعاية :

تظهر سمة الاحتواء عند المرأة فسيولوجياً فى عملية الحمل ، ثم فى احتضان الطفل . كما تظهر نفسياً واجتماعياً فى احتضانها للأسرة والبيت ، وما يموج فيهما من مشكلات واضطرابات . وترتبط هذه السمة الاحتوائية بسمة أخرى ، هى سمة الرعاية الشعورية واللاشعورية ؛ حيث إن المرأة تقوم برعاية كل من فى حوزتها : بدءاً من الجنين فى بطنها ، وانتهاء بزوجها . وإحساسها بواجب رعاية زوجها شبيه – بوجه من الوجوه – بإحساسها بواجب رعاية طفلها ؛ إذ أنها تميل إلى رعايته ، والاهتمام به ، والقيام على شئونه ، وسد مطالبه ، وتلبية رغباته . وإذا ما تصاعد الحب بينها وبين زوجها ، فإن هذا الميل إلى الرعاية يزداد باطراد ، حتى يصل إلى مرحلة لا يكون فيها فرق كبير بين رعاية المرأة لزوجها وبين رعايتها لأبنائها .

الأمومة :

الأمومة هى الوظيفة المحورية التى تتمركز حولها كل حياة الأنثى من مطلع الصبا إلى الشيخوخة . وهى غريزة فطرية ومنبع خصب تستمد منه المرأة كل قواها الدافعة وطاقاتها الإبداعية . وليست الأمومة مجرد حمل تنوء به المرأة ، بل هى أداتها إلى تحقيق تكاملها النفسى واتزانها الوجدانى اللازمين لبلوغ السعادة .

والأمومة أمر تكتنفه المصاعب والمشكلات ، بيد أنها تعبر عن تلك التجربة الخصبة التى تستطيع المرأة من خلالها أن تحقق رسالتها التى تجد فيها كبرى . وفى الوقت الذى تدرك فيه المرأة أنها قد أدت مهمتها تلك على أكمل وجه ، فإنها تدرك تماماً أنها حققت ذاتها أولاً وقبل كل شىء .

ونحن إذ نذهب إلى أن القدرة العاطفية هى السمة الأساسية التى تتميز بها نفس حواء ، فنحن نعنى بذلك القدرة العاطفية التى تعد الوجه الآخر للأمومة . فالأمومة أو العاطفة – ولا فرق – أمر قد خلقت المرأة متطبعة به متجهة إليه .

ومن الأقوال التى تدل دلالة عميقة على أهمية الأمومة بالنسبة للمرأة – قول شاعر بولندى : « إن قلوب النساء كخلايا النحل ، إن لم يملأها شهد المحبة والحنان الأموى – استحالت سريعاً إلى أوكار للأفاعى ! » . بيد أن هذا الشاعر قد فاته شىء هام ، وهو أن الأمومة يستحيل أن تمحى تماماً من كيان المرأة .

وترى « هيلين دويتش » أن « حب الأم » ليس غريزة ، بل هو عاطفة أو حالة وجدانية ؛ فليس « حب الأم » مرتبطاً بالضرورة بالحمل ، بل قد يكون فى استطاعة المرأة أن تبدى « عاطفة الأمومة » نحو طفل قد تبنته ، أو نحو أبناء الزوج الذين أنجبهم من فراش الزوجية الأول . وليس غريباً أن نجد بين النساء من تتجه بحاجتها الطبيعية إلى الأمومة نحو موضوعات أخرى غير أبنائها ؛ فنراها تعطف على أبناء الآخرين ، أو تبدى حنان الأمومة نحو طائفة من البالغين . ومثل هؤلاء النساء قد يحترفن فى العادة أعمالاً تسمح لهن بالحصول على منافذ لإرضاء تلك المشاعر العاطفية المرتبطة بالأمومة . وحينما تتخلى المرأة عن مستقبلها ، فتقلع عن رغبتها فى الزواج وإنجاب النسل ، لكى تعين غيرها من الأمهات ، وتكرس نفسها لخدمة أبنائهن ، مضحية بكل مصالحها ومشاعرها الأنانية – فإنها بذلك تتخذ لنفسها موقف « الأم الحزينة » ، التى تحاول أن تشبع عاطفة الأمومة لديها بطريقة شاذة منحرفة . وهناك حالات أخرى قد تعمد فيها بعض النساء إلى إرضاء حاجتهن إلى الأمومة بطرق زائفة ملتوية نظراً لشعورهن بالخوف من المعاشرات الجنسية . ومثل هذه الحالات الشاذة ما هى إلا أدلة تدلنا على مدى أهمية « الأمومة » فى حياة المرأة ، على الرغم من مزاعم بعض دعاة الحرية

النسوية ! إن الطفلة الصغيرة التى ترعى دميتها وعرائسها الصغيرة ، أو تهز أخاها الأصغر بين يديها وترعاه وتغسل جسمه وتساعده على ارتداء ملابسه – تعبر تعبيراً واضحاً عن غريزة الأمومة ودون تأثر ممن يشرفون على تربيتها . وهى تعبر عن هذه الغريزة الفطرية عندما تلعب لعبة « الأم » ، أو تمارس أى لون من ألوان النشاط التى تقوم بها النساء الناضجات إذا كن محرومات من عاطفة الأمومة . وقد يقال : إن لعب البنت لعبة الأم ، أو تظاهرها بمظاهر المعلمة أو المربية أو الممرضة – ينطوى على رغبة فى القوة والسيطرة . ولكن هذه الرغبة لا تعدو تعبيراً عن رغبة الأم فى القوة والسيطرة على أبنائها ؛ إذ أن غريزة الأمومة هى السمة الجوهرية التى تتسم بها مثل هذه السلوكيات ، التى بها ترضى البنت رغبتها فى رعاية من يحتاجون إلى رعاية وعطف وحنان الأم . وفى مقابل ذلك تحوز وفاءهم وحبهم وإخلاصهم .

المأساة الأنثوية المزعومة :

ويذهب البعض إلى أن سمات المرأة تمثل مأساة بيولوجية وسيكولوجية . ولكن الحقيقة المطابقة للواقع المتعدد الجوانب تنبئنا أن مثل هذا المذهب يتمتع بنصيب كبير من الزيف والاعوجاج ؛ لأن الحقائق الحيوية الخاصة بحياة المرأة لا يمكن بأى حال أن تكوّن مواد المأساة المزعومة ، وليس هناك أسباب أو دوافع كافية تسمح لنا بالنظر إليها نظرة محزونة أو ذات إشفاق . فأساس المأساة المزعومة ليس له وجود واقعى ؛ ومن ثم فالمأساة نفسها لا وجود لها .

وإذا كانت المرأة لديها من المشاغل والمتاعب والأخطار ما يجعلها تشقى بعض الشقاء ، فإن لديها من إمكانيات السعادة وفرص التفوق ما يعادل ذلك ويكافئه . ومن الخطأ تماماً أن ننظر إليها نظرة إشفاق أو عطف أو رثاء ، وخطأ أكبر منه أن نجعلها تعتقد بأنها موضع لمثل هذه النظرات أو ما يشابهها . فقد نشأت سلبيات وأضرار عظيمة نتيجة لإشعار المرأة دوماً بأنها موضع إشفاق أو عطف . ولذا فعلينا أن نراجع أنفسنا كثيراً حتى يمكننا رد الأمور إلى نصابها الصحيح . ويجب أن نتذكر دائماً أن نقص المرأة النسبى يقابله تفوق ملحوظ فى

جوانب أخرى عديدة ؛ فنقص وظائف عقلها الأساسية يقابله تفوق فى وظائفه الثانوية ، ونقصان قدرتها على التفكير المنطقى يقابله عظم قدرتها على التفكير الحدسى والإلهام ، وضعفها الحسى الناتج عن رقتها ومرونتها وشدة حساسيتها يقابله تفوق وسمو فى مظاهر الأنوثة ومتطلبات الأمومة .

ثم كيف لنا أن ننظر إلى هذه الجوانب على أنها جوانب نقص ؟! إن نظرة من هذا القبيل لهى دليل على قصور واضح فى أساليب التفكير ؛ لأن هذه الجوانب المعنية ، فى نظرى أنا شخصياً ، تمثل أموراً هامة لابد من توافرها حتى تصبح المرأة امرأة ، حتى تصبح امرأة تكمل وتتمم الرجل ؛ حتى تصبح منحنيات المرأة تقابل نتوءات الرجل كأنها مخلوقة على (قدها) لتتداخل معها وتستقر فيها ؛ حتى يصبح كل تجويف فى المرأة يقابله بروز فى الرجل ، وكل تجويف فى الرجل يقابله بروز فى المرأة . ومن التحام القسمين المتقابلين تنشأ « تعشيقة » مترابطة متناسقة ، يتألف منها مخلوق متكامل متمازج .

* * *

سمات الذكر النفسية والعقلية

يكمن شيء من الطموح عادة فى تفكير الرجل وسلوكياته . ولذا فهو يحتاج دائماً إلى تنمية قدراته وإمكانياته التى تحقق له الفوز والانتصار .

وتتجلى سمة « الطموح » عند الرجل فى الرغبة المتزايدة فى القوة ، والسيطرة ، والكمال بوجه عام .

ويزداد انغماس الرجل فى هذا الاتجاه نتيجة لصراع البقاء الذى فرضته عليه الطبيعة ، والصراع هنا ليس من أجل وجود الرجل وحده ، بل من أجل وجود امرأته وأبنائه وعشيرته .

لقد فُرِضَ صراع البقاء على الرجل فرضاً مطرداً منذ قديم الزمن فى كل أرجاء المعمورة . وكلما ازداد انشغاله برعاية وحماية أسرته وعشيرته ازدادت صعوبة هذا الصراع والتحدى . وهذا الأمر ليس مقصوراً على الحضارات السالفة فحسب ، بل هو ينطبق أيضاً على حضارتنا المعاصرة وإن اختلفت طبيعة التحدى والصراع نتيجة للمتغيرات الجديدة التى تمتاز بها حضارتنا .

إذا وضعنا كل هذا فى اعتبارنا لتبين لنا أن على الرجل أن ينفق الشطر الأكبر من حياته من أجل تحسين صفاته الذكرية ، والبلوغ بها مبلغاً يتيسر معه التخفيف من حدة هذا الصراع . وليس هذا لأسباب ذاتية فحسب ، بل لأسباب موضوعية خارجية أيضاً .

وتتباين طبيعة الصراع والتحدى من مجتمع إلى مجتمع ، ومن حضارة إلى أخرى .. ففى المجتمع البدائى يلجأ الرجل إلى قوته الجسدية والعضلية فى مقاومة الأعداء والحيوانات المفترسة ، وفى الصمود أمام قوى الطبيعة وقهرها . وفى مجتمع « الكاوبويز » يلجأ الرجل إلى المسدس وسيلة للتعبير عن الذات ، دفاعاً وعدواناً ؛ وعلى قدر سرعة تناوله للمسدس وإطلاقه تكون بطولته وعظمته . ويوجد المسدسان دائماً على جانبى وسطه ، يتباهى بهما ويسير مختالاً فخوراً ، ويداه

قريبتان منهما ، مستعداً لأن يتناولهما فى مثل لمح البصر ليطلقهما يمنة ويسرة ضد أى عدو أو متحد . وفى مجتمع ثالث توجد مظاهر أخرى مختلفة عن هذا وذاك . وكلما تغير الإنسان وبيئته انقلبت وتعدلت طبيعة التحدى بشكل ظاهر .

وحين يتنافس المثقفون فى حضارتنا المعاصرة على بلوغ مدارج الكمال ، فإنهم يجعلون قوام منافستهم الصفات العقلية أساساً . ويقوم صراع البقاء بينهم بأكمله على أسلحة العقل . ولن يمكن لأحدهم بلوغ القوة الحقيقية أو المحافظة عليها إلا بقوة التفكير والمنطق فحسب . والأدلة على ذلك يستطيع المرء أن يراها فى كل مكان ، ويلاحظها بشكل ملموس واضح كل يوم .

ورغبة الرجل فى بلوغ الكمال ، تدفعه إلى الانتفاع بكل قدراته العقلية ، وإلى تركيز أفكاره فى الهدف المنشود . وهذه الرغبة قد تدفعه إلى الأمام فى الحياة ، وقد تتلف فرص نجاحه إتلافاً شديداً إذا لم يتحكم فيها تحكماً مناسباً .

وهذه الرغبة فى الكمال تؤدى حتماً إلى درجة من الأثرة أو تركيز الاهتمام بالذات . وهذا التركيز يفيده أعظم الفائدة فى صراع البقاء . وإذا لم يستفد الرجل بهذه السمة فى بلوغ هدفه المختار ، فإنه ينحرف عن الطريق السوى . والرجل الحقيقى هو الذى لا يكتفى دائما بالنتائج الذى يصل إليها ، بل يرغب فى تحقيق نتائج أفضل باستمرار .

وهذه السمات الرجولية لا يكتسبها المرء نتيجة لنموه وتطوره فحسب ، بل يمكن ملاحظتها فى الأطفال الذكور قبل أن تؤثر فيهم التربية أى تأثير بعد ؛ ذلك أننا نلاحظ الولد يشتهى أن يمسك مسدساً أو سيفاً ، ويتشوق للقتال ، لقياس قوته بالنسبة لقوة غيره . ويصور له الطموح أن يكون قائداً ، أو ضابطاً ، أو سائق سيارة ، أو طياراً ، أو يتولى منصباً يتيح له القوة والسيطرة على غيره . ويراقب كيف تلعب لعبته ، ويحاول أن يفكها ويتعرف على أسلوب عملها ومكوناتها ؛ لأنه يرغب فى الإنتاج والابتكار .

وإذا كنا فى معرض تناولنا لسمات المرأة النفسية والعقلية ذكرنا أن النساء يمتاز تفكيرهنّ بالحدْس والإلهام ، فإننا نذكر هنا فى مقابل ذلك أن الرجال يتميز

تفكيرهم بالمنطقية والاستدلال ؛ فطريقة التفكير فى حل المسائل ومواجهة المشكلات لدى الرجال تختلف عنها لدى النساء ؛ لأن الرجال يستخدمون خلايا دماغية مختلفة عن خلايا النساء فى عملية التفكير . وتكوين الأنسجة الدماغية لدى الرجال قد يساعدهم فى الوصول إلى إدراك ذهنى – مكانى يفسر تفوقهم الملحوظ فى علم الرياضيات مثلاً . أما الأنسجة الدماغية لدى النساء فتساعدهن على الإدراك اللفظى مما يفسر سهولة تعلمهنّ اللغات .

ويتميز عقل الرجال الممتازين ، بصفة عامة ، بالسمات الآتية :

أولاً : التفكير المنطقى المنظم فى حل المشاكل :

ويحدث إذا صادف المرء مشكلة ما . ويمكن بيان الخطوات المتبعة فى مثل هذا النوع من التفكير فى النقاط الآتية :

١ – الشعور بالمشكلة .
٢ – تحديد المشكلة .
٣ – فرض الفروض التى تصلح كتخمينات محتملة لحل المشكلة .
٤ – اختبار هذه الحلول المحتملة عن طريق القيام بملاحظات أو تجارب .
٥ – التوصل إلى الحلول .

فالعالم فى الكيمياء أو الطبيعة ، مثلاً ، تواجهه مشكلة تفسير ظاهرة معينة ، فيبدأ بتحديد المشكلة التى يريد تفسيرها ، ثم يفترض فروضاً مختلفة لتفسيرها ، ويبدأ فى معمله يجرب كل فرض من هذه الفروض ، وذلك حتى يتوصل إلى تفسير مقبول للظاهرة ، ثم يضع قاعدة أو قانونا يستطيع أن يطبقه على الحالات المماثلة .

ثانياً : التفكير الإبداعى الابتكارى :

لقد تطورت البشرية ، فى جانب كبير منها ، بتقدم الاختراعات التى هى نتاج لتفكير الرجل . ويهمنا إلى جانب معرفةخطوات التفكير أن نعرف كيف يفكر العلماء حين توصلوا إلى اختراعاتهم . وقد توصل علماء النفس إلى معرفة بذلك بدراسة ما ذكره العلماء عن أنفسهم وطريقتهم فى التفكير الابتكارى .

وقد حلل « ولاس » التفكير الابتكارى فى أربع مراحل :

١ – الإعداد .

٢ – الحضانة .

٣ – الإلهام .

٤ – التحقيق .

فالعالم أو المفكر يحصل – فى مرحلة الإعداد – على معلومات ومهارات فى ميدانه . وفى مرحلة الحضانة يتحرر فكره من الأخطاء التى علقت به ، وتتفكك عناصر المشكلة ، مما يؤدى إلى ظهور علاقات جديدة بينها لم تكن واضحة من قبل . ثم فى مرحلة الإلهام يدرك العقل العلاقات الجديدة بين عناصر المشكلة ، فيثب الحل الصحيح إلى الذهن فجأة . ثم فى مرحلة التحقيق ، يحاول العالم بيان صحة الحل الذى وصل إليه بوضعه موضع الاختبار .

ثالثاً : القدرة على التركيز العقلى ومواصلته تجاه هدف محدد :

لاحظ العلماء أن القدرة على التركيز لفترة زمنية طويلة تجاه هدف محدد ، تعد إحدى القدرات الأساسية ، التى يتشكل من خلالها السلوك الإبداعى ؛ ومن ثم فإن هذه السمة وثيقة الارتباط بالسمة المذكورة قبلها فى البند السابق .

ذلك أن العالم المبدع ، يبدو أنه يمتاز بالقدرة على تركيز انتباهه وتفكيره فى مشكلة معينة زمناً طويلاً جداً . وهذا مما يتفق مع ملاحظة « ماير » ومؤداها : أن من بين السمات الهامة التى تمتاز بها عادات العمل عند الأطفال والراشدين النابغين : التركيز على العمل الذى هم بصدده لفترات زمنية طويلة . وكذلك ذكر « فرتهيمر » عن « أينشتين » أنه ظل معنياً بمشكلته العلمية الرئيسية لمدة سبع سنوات متواصلة . ذلك على الرغم من أن المشكلة قد تتغير قليلاً أو كثيراً فى مضمونها ، لكن المبدع يظل مواصلاً لاتجاه معين .

وقد يؤدى الإفراط فى هذه السمات إلى تعطيل وظائف العقل الثانوية ، أى أن اللاشعور يتعطل بسبب الشعور .

والوظائف الثانوية للعقل هامة جداً ، ولا يمكن الاستغناء عنها فى تحقيق أى عمل عقلى ممتاز . ومع ذلك ، فمن الواضح أن هذه الوظائف الثانوية يجب التحكم فيها بالتفكير الأولى الشعورى حتى تصل إلى الدرجة المطلوبة من الدقة والاتقان .

ويجب أن نتنبه إلى أن السمات العقلية سالفة الذكر تنتمى إلى الرجل أكثر مما تنتمى إلى المرأة ، كما أن الإلهام والحدْس ينتميان إلى المرأة أكثر مما ينتميان إلى الرجل .

كما يجب علينا أن نتذكر دائماً فى هذا الكتاب أن المسألة ليست مطلقاً مفاضلة بين الجنسين ، إنما هى فقط بيان وجوه الاختلاف والتباين بينهما ، وبيان أن لكل منهما قيمة متساوية ، ولو أن قيمة كل منهما من نوع مختلف . وأنا أذكر هذا الكلام ، لكى أتمكن قدر الطاقة من تجنب الغضب الذى قد يبديه البعض عند استعراض نتائج الأبحاث العلمية التى تؤيد نظرية التباين بين الجنسين .

* * *